القلب المسكين[١]

ـ ٥ ـ

أمَّا صاحب القلب المسكين ، فتزعزعت كبده ممَّا رأى ؛ وجعل ينظر إلى هذه الفتَّانة تمثِّل زفاف العروس ، وقد أشرق فيها رونقها ، وسطعتْ ، ولمعتْ ، فبدت له مُفسرةً في هذه الغلائل ، غلائل العُرْس ، وما غلائل العُرْس ؟

إنَّها تلك الثِّيابُ ؛ التي تكسو لابستها إلى ساعةٍ فقط . . . ثيابٌ أجمل ما فيها أنَّها تقدِّم الجمال إلى الحبِّ ، فأزهى ألوانها اللَّون المشرق من روح لابستها ، وأسطعُ الأنوار عليها النُّورُ المنبعث من فرح قلبين .

تلك الثِّيابُ التي تكون سكباً من خالص الحرير ، ورفيع الخزِّ ، وحين تلبَسها مثلُ هذه الفاتنة ؛ تكاد تنطق : أنَّها ليست من الحرير ؛ إذ تعلم أنَّ الحرير ما تحتها .

ثمَّ تنهَّد المسكين ، وقال : أفهمت ؟

قلت : فهمتُ ماذا ؟

قال : هذا هو انتقامُها .

قلت : يا عجباً ! أتريدها في ثياب راهبةٍ مُكبكبةٍ فيها ، كما ألقيت البضاعة في غِرارةٍ[٢] بين سوادٍ هو شعار الحِداد على الأنوثة الهالكة ، وبياضٍ هو شعار الكفن لهذه الأنوثة ؟

قال : أنت لا تعرفها ؛ إنَّ الرواية الَّتي تمثل فيها بين الرُّوح والجسم ، هي الَّتي

---

(١) نرجِّح أن يكون القرَّاء قد أدركوا الغرض من كتابة هذه المقالات على هذا السَّرد الذي وصفته لنا إحدى الأديبات بأن « فيه أشياء مادِّيَّة » ؛ فنحن نرمي إلى تصوير الغريزة ثائرةً مهتاجةً بكلِّ أسباب الثَّورة ، والاهتياج ، ولكنَّها مكفوفة بأسباب أخرى من الدِّين ، والشَّرف ، والمروءة ، وفلسفة العقل . (س) .

(٢) « غِرارة » : كيس كبير من الخيش ونحوه ، تُوضَع فيه الحبوب . وهو أكبر من (شوال) عند العامَّة .

احتاجت إلى هذا الفصل يقوى به المعنى ، وكلُّ عاشقةٍ فعشقُها هو الرِّواية الَّتي تمثِّل فيها ، يؤلِّفها هذا الموقف ، الذي اسمه الحبُّ ، ولا تدري هي ماذا يصنع ، وماذا يؤلِّف ؛ غير أنَّه لا يفتأ يؤلِّف ويصنع ، وينقِّح كما تتنزَّل به الحال بعد الحال ، وكما تعرض به المصادفة بعد المصادفة ؛ وعليها هي أن تمثِّل .

قلت : فهذا ؛ ولكن كيف يكون هذا انتقاماً ؟

قال : إنَّ الأفكار أشياء حقيقيَّةٌ ، ولو كشفت لك الجوَّ هذه السَّاعة ؛ لرأيته مسطوراً عباراتٍ عبارتٍ ، كأنَّه مقالةُ جريدةٍ .

هذا الفصل حوارٌ طويلٌ في الهموم ، والآلام ، ورقَّة الشَّوق ، وتهالك الصَّبوة ، لو كتب له عنوان ؛ لكان عنوانه هكذا : ما أشهاها ! وما أحظاها ! إنَّ الهواء بين كل عاشقين متقابلين يأخذ ، ويعطي .

قلت : يا عدوَّ نفسه ! ما أعجبَ ما تدقِّق ! لقد أدركتُ الآن : أنَّ المرأةَ تتسلَّح بما شاءت ، لا من أجل أن تدافع ، ولكن لتزيد أسلحتها في سلاح من تحبُّه ، فتزيده قوَّةً على قهرها ، وإخضاعها .

* * *

أما هذه (العروس) فكانت أفكارها لا تجد ألفاظاً تحدُّها ، فهي تظهر كيفما اتَّفق ؛ مرسَلةً إرسالاً في اللَّفتَة ، والحركة ، والهيئة ، والقومة ، والعقدة ، وهي من علمتَ : امرأةٌ تعيش للحقائق ؛ وبين الحقائق ، ككلِّ ذي صنعةٍ في صنعته ، فكانت في تماديها خطراً أيَّ خطرٍ على صاحب القلب المسكين ! تمثِّل شيئاً لا أدري أهو ظاهرٌ بخفائه ، أم هو خافٍ بظهوره ، وقد وقع صاحبنا منها فيما لم يدخل في حسابه ، فكانت الخبيثة الماجنة تُسكره بمسكرٍ حقيقيٍّ ، غير أنَّه من جسمها ، لا من زجاجة خمرٍ .

وكانت لذهنه المتخيِّل كالسَّحابة الممتلئة بالبرق ، تومِضُ كلَّ لحظةٍ بأنوار بعد أنوارٍ ، وبين الفترة والفترة ترمي الصَّاعقة .

وظهرت كأنَّها امرأةٌ مخلوقةٌ من دمٍ ولهبٍ ، فلقد أيقنتُ حينئذٍ : أنَّ الحبَّ إنْ هو إلا الغريزة البهيميَّة بعينها محاولةً أن تكون شيئاً له وجودٌ فنيٌّ إلى وجوده الطَّبيعيِّ ، فهو مصيبتان في واحدٍ ، وكلُّ عمله أن يجعل اللَّذَّة ألذَّ ، والألم أشدَّ ،

والقلَّة كثيرة ، والكثرة أكثر ، وما هو نهايةٌ كأنَّه لا نهاية . . هذه (العروس) كانت قبل الآن واقفةً على حدود صاحبها ، أمَّا الآن ؛ فإنَّما تقتحم الحدود ، وتغزو غزوَها ، وتملك .

يا لَسِحْر الحبِّ من سِحرٍ ! كلُّ ما في الطَّبيعة من جمالٍ تظهره الطَّبيعة لعاشقها في إحدى صور الفهم ، أمَّا الحبيب الجميل ؛ فهو وحده الَّذي يظهر لعاشقه في كل صور الفهم ، وبهذا يكون الوقت معه أوقاتاً مختلفةً متناقضةً ، ففي ساعةٍ يكون العقل ، وفي ساعةٍ يكون الجنون .

يا لَسحر الحبِّ ! لقد أرادت هذه المرأة أن تذهب بعقل صاحبها ، وأن تنقله إلى وحشيَّة الإنسان الأوَّل الكامن فيه ، وأن تقذف به إلى بعيدٍ بعيدٍ وراء فضائله ، وعصمته ، فسنحتْ له كما يسنح الصَّيد للصَّائد ، يحمل في جسمه لحمه الشَّهيَّ . . . وتركت شعوره جائعاً إلى محاسنها بمثل جوع المعِدة . . . وبرزتْ له صريحةً كما هي ، ولِمَا هي ، ومن حيث : أنَّها هي ، هي ، وكلُّ ذلك حين ألبست جسمها ثياب الحقيقة المؤنَّثة .

آه مِن (هي) إذا امتلأت الهاء والياء من قلب رجلٍ يحبُّ ! وآهٍ من (هي) إذا خرجت هذه الكلمة من لغة النَّاس إلى لغة رجلٍ واحدٍ !

إنَّ في كلِّ امرأةٍ . . امرأةٌ يقال لها : (هي)[1] باعتبار الضَّمير للتأنيث فقط ، كما يعتبر في الدَّابَّة ، والحشرة ، والأداة ، ونحوها من هذه المونَّثات ؛ التي يرجع عليها هذا الضَّمير ، ولكن (هي) المقدرة في الكون كلِّه لا توجد في النِّساء إلا حين يوجد لها (هو) .

* * *

أنا . . أنا الَّذي يقصُّ للقرَّاء هذه القصَّة ، قد كابدت من شدَّة الحبِّ ، وإفراط الوجد ما يُفعِم قلبين مسكينين لا قلباً واحداً ، وكنت لي (هي) من الهيَاتِ عانيت فيها الحبَّ ، والألم دهراً طويلاً ، وقد ذهبت بي في هواها كلَّ مذهبٍ إلا مذهباً يحلُّ حراماً ، أو مذهباً يخلُّ بمروءةٍ ، لقد علمت : أنَّ الشَّيء السَّامي في

(١) قلت : هنا رسالةٌ إلى « فلانة » من تلك الرَّسائل التي كانت بينهما بعد القطيعة . . . وانظر : « رسائل الأحزان » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

الحبَّ هو ألا يخرج من العاشق مجرمٌ .

فالشَّأن كلّ الشَّأن أن يستطيع الرَّجل الفصل بين الحبِّ من أجل جمال الأنثى يظهر عليها ، وبين الحبِّ من أجل الأنثى تظهر في جمالها ، فهو في الأولى يشهد الإلـهيَّة في إبداعها السَّامي الجميل ، وفي الآخرى لا يرى غير البشريَّة في حيوانيَّتها المتجمِّلة .

وقد أدركت من فلسفة الحبِّ : أنَّ الحقيقة الكبرى لهذا الجمال الأزليِّ ؛ الَّذي يملأ العالم ـ قد جعلت حنين العشق في قلب الإنسان هو أوَّل أمثلتها العمليَّة في تعليمه الحنين إليها إلى أن يتعلَّم ، فكما يحبُّ إنسانٌ بروح الشَّهوة يحبُّ إنسانٌ آخر بروح العبادة ، وهذا هو الذي يسمِّيه الفلاسفة : (تلطيف السِّرِّ) أي : جعله مستعدّاً للتوجُّه إلى النُّور ، والحقِّ ، والخير ، وقد عدُّوا فيما يعين عليه الفكرَ الدَّقيق ، والعشقَ العنيفَ .

وكذلك تبيَّنت ممَّا علمني الحبُّ : أنَّ طرد آدم ، وحوَّاء من الفردوس ، كان معناه ثقلَ معاني الفردوس ، وعرْضَها لكلِّ آدم وحوَّاء يمثِّلان الرِّواية . . . فإذا « قطفا الثَّمرة » طُردا من معاني الجنَّة[1] ، وهبطا بعد ذلك من أخيلة السَّماء إلى حقائق الأرض .

نعم هو الحبُّ شيءٌ واحدٌ في كلِّ عاشقٍ لكلِّ جميلٍ ، غير أنَّ الفرق بين أهله يكون في جمال العمل ، أو قبح العمل ، وهذه النُّفوس مصانع مختلفةٌ لهذه المادَّة الواحدة ، فالحبُّ في بعضها يكون قوَّةً ، وفي بعضها يكون ضعفاً ، وفي نفسٍ يكون الهوى حيوانيّاً ، يُراكِم الظُّلمة على الظُّلمةِ في الحياة ، وفي أخرى يكون روحانيّاً ، يكشف الظَّلام عن الحياة .

والمعجزة في هذا الإنسان الضَّعيف : أنَّ له مع طبيعة كلِّ شيءٍ طبيعةَ الإحساس به ، فهو مستطيعٌ أن يجد لذَّةَ نفسه في الألم ، قادرٌ على أن يأخذ هبةً من معاني الحرمان ؛ وبهذه الطَّبيعة يسمو مَنْ يسمو ، وهي على أتمِّها وأقواها في عظماء النُّفوس ، حتَّى لكأنَّ الأشياء تأتي هؤلاء العظماء سائلةً : ماذا يريدون منها ؟

فمن أراد أن يسمو بالحبِّ ، فليضعْه في نفسه بين شيئين : الخُلُقُ الرَّفيع ،

(١) بسطنا هذا المعنى في المقالة الثانية من هذه المقالات على وجهٍ آخر . (ع) .

والحكمة النَّاضجة ، فإن لم يستطع ؛ فلا أقلَّ من شيئين : الحلالُ ، والحرام[١] .

* * *

أنا . . . أنا الَّذي يقصُّ للقرَّاء هذه القصَّة ، أعرف هذا كلَّه ، وبهذا كلِّه فهمت قول صاحب القلب المسكين : إنَّ ظهور صاحبته في فصل العروس هو انتقامها ؛ حاصرَتْ عيناها عينه ، وزحفت معانيها على معانيه ؛ وقاتلت قتال جسم المرأة المحبوبة في معركة حبِّها ، وبكلمةٍ واحدةٍ : كأنَّما لبست هذه الثِّياب ؛ لتظهر له بلا ثيابٍ .

وأردت أن أعيبها بما صنعتْ نفسُها له ، وأن أعيبَه هو بدخوله فيما لا يشبهه ، وقلت في غير طائلٍ ولا جدوى ، فما كنت إلا كالَّذي يعيب الورد بقوله : يا عطر الشَّذا ! ويا أحمرَ الخَدَّين !

وقد أمسك عن جوابي ، وكانت محاسنُها تجعل كلماتي شوهاء ، وكان وضوحها جعل معانيَّ غامضةً ، وكانت حلاوتها تجعل أقوالي مرَّةً ، وكانت ثياب العرس وهي تزفُّ تريه ألفاظي في ثياب العجوز المطلقة ، وكلَّما غاضبته مع نفسه ؛ أوقعت هي الصُّلح بينه وبين نفسه .

والعجيبُ العجيبُ في هذا الحبِّ أنَّ فتح العينين على الجميل المحبوب هو نوعٌ من تغميضها للنَّوم ، ورؤيا الأحلام ليس إلا هذا ، ولا يكون أبداً إلا هذا ؛ فمهما أعطيتَ من جدول فإقناعك المحبّ المستهام كإقناعك النَّائم المستثقل ؛ وكيف وله ألفاظٌ من عقله ، لا من عقلك ، وبينك وبينه نسيانه إيَّاك ، وقد تركك على ظاهر الدُّنيا ، وغاص هو في دنيا باطنه ، لا يملك فيها أخذاً ، ولا رَدّاً إلا ما تعطي ، وما تمنع .

* * *

ثمَّ . . . ثمَّ غابت (العروس) بعد أن نظرت له ، وضحكت .

ضحكت بحزنٍ ، حُزْن الَّذي يسخر من حقيقةٍ ؛ لأنَّه يتألَّم من حقيقةٍ غيرها ؛ وكان منظرها الجميل المنكسر فلسفةً تامَّةً مصوَّرةً للخير الَّذي اعتدى عليه الشَّرُّ ،

---

(١) أي : طرداً كالطَّرد من الجنة . (ع) .

فأحاله ، والإرادةِ الَّتي أكرهها القدر ، فأخضعها ، والعفَّة المسكينة الَّتي أذلَّتها ضرورة الحياة ، والفضيلة المغلوبة ؛ التي حيل بينها وبين أن تكون فضيلةً !

وياما كان أجملها ناظرةً بمعاني البكاء ، ضاحكةً بغير معاني الضَّحك ؛ تتنهَّد ملامح وجهها ، وفمُها يبتسم ! .

كان منظرها ناطقاً بأنَّ قلبها الحزين يسأل سؤالاً أبداه على وجهها بلطفٍ ، ورقَّةٍ كأنه يسأل إنساناً : ألا تحلُّ هذه العقدة . . ؟ .

وانقضى التمثيل ، وتناهض النَّاس .

* * *